

الصورية هي التي تحكم كثيراً من مقاربات الفكر المعاصر مثل علم الدلالة البنيوي وعلم الشاهد الأمثل. ومعلوم أن هذه الدراسات لا تمت إلى الميتافيزيقا بصلة لأنها دراسات أنثروبولوجية ولسانية ونفسانية. وهكذا، فإننا نجدتها تتسم بالتراتبية والتشابهية في صياغة المقولات وتصنيفها؛ فبعضها صنف المقولات إلى خمس درجات هي: المملكة (أو البداية) وشكل الحياة والجنس والنوع والأفراد، وبعضها اختصرها إلى ثلاثة مستويات: المستوى الأعلى والمستوى القاعدي والمستوى الأدنى. ألا يظهر، في هذا، أن الآليات واحدة؛ على أن تماثل الآليات يجب أن لا يحجب اختلاف الأهداف، فقد رأينا أن لكل مرحلة تاريخية مقاصدها. فقد كانت قديماً مقاصد سياسية وميتافيزيقية. وهنا والآن مقاصد تعليمية نفسانية تفتح آفاقاً جديدة لقراءة الاستراتيجيات القديمة في ضوءها.

إن القدرة على التسمية وإيجاد المقولات متوافرة في المستوى القاعدي أكثر من المستوى الأعلى والمستوى الأدنى، لأن المستوى الأعلى ليس إلا تسمية مجردة، وأما المستويان الآخران فيمكن تسمية أفرادهما وإدراكهما بصورة تجريدية أو مجسمة، وإدراكهما بسرعة واستعمالهما. وقد ذكر الباحثون في هذا النوع من الدلالة سمات كثيرة للمستوى القاعدي تتعلق بالإدراك وبالوظيفة وبالتواصل؛ على أن القارئ لهذه التصنيفات وأنواعها يجدها تهتم أساساً بتصنيفات الحيوان والنبات والأثاث: أي المقولات الطبيعية والاصطناعية.

إذا تبين من خلال الدراسات الأنثروبولوجية واللسانية أن المستوى القاعدي يسهل إيجاد مقولات لمفرداته، فما الحال إذا تعلق الأمر بتصنيفات مجردة وتراتبات معقولة مثلما هو الشأن في الإلهيات؟ وبناء على ما تقدم من معطيات فإن نظرية الشاهد الأمثل المعيارية الأنثروبولوجية واللسانية لن تسهم في حل معضلة الصفات الإلهية؛ على أن بعض الدراسات حاولت أن توسع هذه النظرية ليتمكن الحديث عما هو مجرد أيضاً. وهي دراسات كثيرة نكتفي منها بالإشارة إلى منجزات أحد الأعلام البارزين وهو جورج لايكوف؛ يقول: «ما يميز المستوى القاعدي ليس الحضور في العالم الخارجي. فالعوامل المحددة للمستوى القاعدي تحتاج إلى الأجسام والأفكار (في آن واحد)⁽⁵⁾. فالصناعة المقولية للمستوى القاعدي لا تحدد فقط بما في العالم ولكنها تحدد أيضاً بكيفية تفاعل أجسامنا وتنظيمنا المعرفي وبغاياتنا المحددة بالعالم

(5) ما بين قوسين إضافة منا لتوضيح الفكرة.